المحاضرة الاولى

الادب (١)

« أفقه · فعله · غايته »

فكرت في شيء من الكلام أمهد به السبيل الى دراسة الأدب في خلال هذه السنة ، قلت : دراسة الادب ، وكان يجب عليّ ان أقول : أحاديث الأدب · لان كلمة الدراسة تدل على شيء من جهد الذهن وعنت الفكر وما ينبغي للادب ان يكون الا ألهية يتلاهى بها العقل ، لكنها ألهية شريفة لا تشبه غيرها من الألاهي ، ما ينبغي للأدب ان يكون الا لذة الفكر وراحة البال · فكرت في شيء من الكلام أستعين به على الاستهلال ثم عدلت عن التفكير وقلت ما قاله الاستاذ « برونتير Brunetière) في اول محاضرة من محاضراته : لعلكم تعترفون بان المقدمات الطويلة لا تكون في كل حين أروع المقدمات وأفضلها · فلنشرع في حديثنا الاول دون افاضة في التمهيد ·

* * *

قلت : الأدب ألهية ولكنها شريفة · واذا أردنا ان نعرف مبلغ شرفها لزمنا ان ننظر الى أفق الأدب المديد · فمتى أدركنا العالم الذي يحيط به الأدب علمنا مقدار اتساع أفيائه وانبساط سلطانه ·

قال « اناتول فرانس ، Anatole France » في مقال له في معجمات اللغة :

اني أحب معجمات اللغة · فانا لا احبها لمجرد فائدتها العظيمة ولكني احبها لانها تحتوي على شيء جميل فخم · انظر الى معجم غازية او الى غيره من المعجمات وتصور انك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم ، ليتصور ذهنك ان في هذه الصفحات التي يبلغ عددها الف صفحة او الفا ومائتي صفحة عبقرية فرنسا وطبيعتها · ليتصور ذهنك ان فيها افكارنا

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي ومدير الكلية المذكورة · وقد عزمت مجلة المجمع العلمي على نشر هذه المحاضرات كلها متتابعة ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وافكار اجدادنا وافراحنا وافراحهم واعمالنا واعمالهم وآلامنا وآلامهم . ليخطر ببالك ان في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم العليل الذي نشمه اليوم . ليخطر ببالك ان كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الافكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عددهم . وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم . ليحبس في صدرك ان كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشر ودمها وروحها » .

اني احب ان اقتبس قول اناتول فرانس في اللغة فأقوله في الأدب نفسه فاذا قلنا في الادب ما قاله اناتول في اللغة ، اذا قلنا على سبيل التجوز ان الادب هو روح الوطن وعبقريته ادركنا حينئذ معنى كلامنا : الادب ألهية شريفة لا تشبه غيرها من الالاهي .

* * *

كنت أطالع رواية من الروايات فعلقت بذهني عبارة قيدتها في دفتري . قالها شيخ ايطالي في حض فتى على درس اللغة اللاتينية :

« ان هذه اللغة الشريفة قد أنستني آثارها المنقطعة النظير آلامي وشجوني في معظم الاوقات . كنت ياسيدي أتغدى وماغدائي الا صفحة من «تاسيت» واتعشى وما عشائي الا امجية من « جوفنال » .

لقد ادرك هذا الشيخ غاية الادب الادراك كله ، ادرك ان الادب يفرج الغم ويكشف الكرب وينشيء في العقول لذة لا يعدلها كثير من لذات الدنيا فهي لذة هادئة لا يضطرب صاحبها ولا يقلق . اني على رأي الذين يريدون ان لا يكون الادب موضوع علم وانما أريد ان يكون الادب كما قال عنه الاستاذ (لانسون Lanson) رياضة وذوقاً ولذة . ولا بأس بان انلو عليكم فصلاً للاستاذ (لانسون) في طبيعة الادب وفعله :

« الادب لا يعلمه المرء علماً ولا يدرسه دراسةً وانما يمارسه ويحرثه ويحبه واصدق كلام فيه انما هو كلام (ده كارت Descartes) الذي قال : قراءة الكتب الصالحة حديث يحدثك به اشرف رجال القرون الخالية ولكنه حديث لا يعرض عليك فيه اولئك الشرفاء الا احسن افكارهم » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان الرياضيين — وانا اعرف طائفة منهم — الذين يلهيهم الادب فيذهبون الى المسارح و يقرأون الكتب على سبيل التسلي انما هم أقرب من الصواب من هؤلاء الادباء الذين لا يقرأون الكتاب قراءة ولكنهم يجردونه تجريداً و يظنون انهم يصيبون الاصابة كلها اذا جعلوه ابواباً . خلق الادب لينشيء لذة لنا ولكنها لذة تروض قوانا العقلية فيخرج العقل من رياضة الادب اقوى سلطاناً واحسن طبيعة واغنى مادة وعلى هذه الصورة يكون الادب ثقاف الباطن ، هذه هي حقيقة فعله .

وللادب الفضل الاكبر في تدريب الناس على ذوق لذة الافكار انه يروض الفكر فيجد المرء في هذه الرياضة مسرّته وراحته وتتجدد قواه . انه يذهب تعبنا الذي نتعبه في ممارسة الاعمال و يرفع العقل فوق كل واجب وفوق كل مصلحة وفوق كل وهم . اصبحت الفلسفة في عصرنا هذا ضرورة العقل ولكن الفلسفة لا يستطيع درسها كل واحد منا ، اما الادب فانه يعم الفلسفة . بالادب تستفيض في الجماعات المذاهب الفلسفية الكبرى التي ترقي هذه الجماعات وتغير اوضاعها . الادب هو الذي يتعبد النفوس التي اثقلتها تكاليف الحياة واغرقتها مشاغل المادة فيحملها على الاعتناء بالمسائل السامية التي تستولي على الحياة وتجعل لها معنى او غاية . لقد ضعف الدين في كثير من رجال العصر وبُعد أفق العلم عن كثير من الناس فالادب وحده هو الذي ينزع بنا عن الاثرة الضيقة او عن الحرفة التي تغرس فينا غرائز الحيوانية » .

هذا ما قاله الاستاذ (لانسون) في طبيعة الادب وابلغ كلامه : الادب ثقاف الباطن . من هذا يتبين لنا ان الثقافة الادبية مجردة اي لا غاية مادية لها وكأن الذين وضعوا « قرار » انشاء مدرستنا قد فطنوا لذلك واحبوا ان ينبهوا عليه فقالوا : غاية مدرسة الادب العليا تثقيف الجمهور تثقيفاً مجرداً وتعليمهم علماً عالياً في نظام الادب وهم يعنون بذلك ان الثقافة الادبية لا تكون غايتها الكسب فلا يدرس الانسان الادب ليعيش به كما يدرس الحقوق او كما يدرس الطب مثلاً وانما يحصل الادب للذته .

اراد احد شباب الفرنسيس ان ينصرف الى الادب فسأل (فلوبر) عن رأيه في ذلك فقال له (فلوبر Flaubert) :

« الاخلاص يدفعني الى ان أبين لك ان استثمار عملك امر صعب جداً ان لم يكن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ممتنعاً ، انك لا تزال تاعم الشباب فاعمل واعمل كثيراً واعتزل في عملك ولا ترج ان تكون لك مكافأة ولا تفكر في نشر ما تكتب ، تقبل طريقي فقد كان عمري سبعاً وثلاثين سنة لما نشرت (مدام بوفاري) فاذا خطر ببالك ان تستخرج فائدة من آثارك ضللت وكنت من الخاسرين فلا تفكر الا في الفن ذاته وفي كماله وما عدا ذلك فهو تابع له .

لا تظن ان حياة اديب مثلي ناضرة بالازاهير فاذا ظننت شيئاً من ذلك كنت من الواهمين ، اذا كان حبك للادب خالصاً فحصّل الادب لنفسك قبل كل شيء واقرأ كثيراً كتب (المدرسيين) وروض قلمك على كتابة اشياء شعرت بها وعلى وصف البيئة التي تأنس بها » .

علما (فلوبر) ان نحصّل الادب لانفسنا دون ان نرجو مكافأة ، ينبغي لنا ان نحصل الادب لمسرة قلوبنا ورياضة عقولنا وتهذيب عواطفنا ، فاذا لم تكن هذه غايتنا لم نستفد من الادب ، اذا كنا نتوخى الكسب في تحصيل الادب انحط ادبنا عن منزلته الرفيعة وصار صناعة من الصناعات التي يمارسها الانسان ليعيش في هذه الدنيا والادب اجل من ان يكون حرفة ، اننا نحصل الادب لنذوق لذة الحياة ، اننا نحبه كما كان الشيخ الايطالي يحب آثار اللغة اللاتينية . اننا نحبه لانه ينسينا الآلام والشجون على انه قد يجوز ان يفيدنا الادب فوائد عظيمة ولكن لا ينبغي ان تكون هذه الفوائد غاية الادب وانما نجنيها على طريقنا في نزهة العقل كما نجني الورد والريحان على طريقنا في نزهة البدن . اننا لا نتنزه لنقطف الورد ولكنا نتنزه لنروض أجسامنا وكذلك لا ندرس الادب لنعيش به ولكنا ندرسه لنروض به عقولنا .

قلت : قد يفيد الادب فوائد عظيمة ، واذا سمحتم لي قرأت لكم عبارة من مقال لي عنوانه : « الكتاب ملوك » ومن هذا المقال يتبين لكم ان الادب قد رفع كثيراً من الناس ولكن المنفعة يجب ان تأتي على سبيله كما يأتي الورد والريحان على سبيل المتنزهين .

* * *

اما وقد فرغت من الحديث الاول فما احب ان اخرج من مجلسنا هذا قبل ان يتأكد عندي اننا ادركنا غاية الادب . ما احب ان اخرج من هذا المجلس قبل ان اتفق بيننا على ان الادب انما هو : رياضة وذوق ولذة لا نتفرغ له لغرض من اغراض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدنيا فهو اجل من ان تكون غايته الكسب وانما نمارسه لندرك به جمال هذا العالم انفسنا نمارسه لنفرج به غم هذه الحياة . يقول اناتول فرانس في هوغو في معرض النقد : عاش فيكتور هوغو ثملاً تسكره الالوان ورنات الاصوات وقد اسكر العالم بذلك . فاذا جاز لي هذا التعبير قلت : الادب يسكر بالوانه ورنات الفاظه فهو نزهة عقولنا ونعم النزهة يشحذ الطباع ويبجح النفس ويعمر الصدر . اني لا ارى اشتطاطاً في الحكم على الادب بشبه اشتطاط تاسوني (Tassoni) الذي كان يعتقد ان الادب مضر بالجماعة والبشرية . اي شيء احسن تروبضاً لمدار كنا من الادب . اي شيء احسن تهذيباً للاهواء منه . اي ثقافة اعمل في التقريب بين البشر من الثقافة الادبية . واذا لم يكن لادبنا في هذا العصر عاقبته المحمودة فهذا ناشيء عن انه لا يزال في عزلة عن الانواع الادبية الحديثة التي فعلت فعلتها في الامم . فاذا كان لحديثنا خلاصة فهذه خلاصته :

الادب الهية شريفة وحسبها شرفاً ان يكون موضوعها روح الوطن وعبقريته .

في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net